أعاديث عابرة :

التجديد في الشعـــر

كما يراه شاعر القطرين خليل بك مطران

في جلسة شاعرية مع شاعر القطرين خليل بك مطران — أحد الأوتار الخمسة في قيثارة الشعر العربي الحديث — كما يقول أستاذنا الزيات ، تشقق بنا القول ، وتنقل بنا الحديث في شجون من الأدب . فأدى بنا ذلك إلى الحديث عن قديم الشعر وجديده . وإلى الكلام عن الشعراء المجددين والمقلدين … وكانت فرصة طيبة أن أسأل الأستاذ الجليل عن علة عدم تقدم الشعر الحديث ، وقصوره عن مجاراة الشعر العالي في باقي اللغات ، فأخذ — حفظه الله — يتحدث في بيانه الرائع عن محاولته الأولى وإخوانه من متقدمي شعراء هذا الجيل في هذه السبيل ، قال :

ظل الشعر العربي منذ فجر حياته محدود الأغراض ، مقيد الأفق ، لم تنفسح له ميادين الخيال ، ولا مجالات التجديد ، بسبب طبيعة البيئة التي نشأ فيها ، والأرض التي درج عليها ، والغايات التي كان يهدف لها …

وكان المبرزون من شعراء العرب ينسجون على منوال من تقدمهم من الجاهليين ، ويترسمون خطاهم ، ويسيرون على هديهم ، فلا يجتاز خيالهم وصف البيئة التي يعيشون فيها ، ولا يمتد إلى ماوراء ذلك من آفاق واسعة وأحاسيس إنسانية ، اللهم ما كانت تسبق إليه طبيعة الشاعر الفنية بين الحين والحين — على غير قصد وفي غير تعمد — في سياق قصيده ، إذ تجد البيت أو البيتين كأنما ساقهما محض المصادفة ، وإلهام الفطرة ! وكان أن حدد علماؤهم للقصيد شروطاً لا يتعداها الشاعر ولا يتخطاها … فإن هو جاوزها عد مقصراً ، وأخذ ذلك عليه . ومن أهم هذه الشروط وحدة القافية ، وقد كان ذلك — فيما أرى — أهم عوائق نهضة الشعر ، وبخاصة في عصرنا الحديث الذي تنوعت فيه ألوان الحضارة ، وتغيرت فيه أهداف الشعر ومقاصده ، وأضحت له أغراض غير التي كانت له بالأمس ؛ فلم يعد لشعر المناسبات تلك الأهمية التي كانت له ، ولا لوصف البيئة التي يعيش فيها الشاعر ولا راحلته ولا دياره ما كان لها من روعة وبهاء .

وقد دفعني ذلك كله منذ بدأت أحاول الشعر إلى أن أنهج به منهجاً آخر يجاري ما نحن فيه من حياة ، ويتمشى وتلك الحضارة التي يدفع بها إلينا الغرب وننقلها نحن عنه ، سواء في الثقافة وتنوع أغراضها ، أو الاجتماع وتعدد مراميه ؛ وكان أن أحدث أنقل إلى العربية آثار كبار شعراء الغرب وأدبائه من أمثال شكسبير وكورني وراسين وفيكتور هوجو ، وألفريد دي موسيه وغيرهم من الانجليز والفرنسيين ، متوخياً أن تكون نماذج أدبية سواء في روعة أخيلتها ، أو تعدد مقاصدها ، أو سعة أفقها ، أو ما تحمله في طواياها من جدة المعنى وروعة اللفظ وبراعة الأداء .

ثم حاولت أن أقحم في الشعر العربي نظم «الملحمة» وما كان له أن يدخل في هذا الفن إلا إذا تخلى من وحدة الروي ، ولكنني أردت بتجربة منظومة أن أبين نهاية ما يستطاع بالروي الواحد ، فأنشأت على سبيل المثال قصيدة « نيرون » في نحو من أربعمائة بيت من بحر واحد وروي واحد . تخيرت لها حرف الراء حتى أبرز للقراء أقصى ما تصل إليه طاقة الناظم بالقافية الواحدة . على أن اللغة العربية تعطي في الروي الواحد ما لا تعطيه لغة أخرى باطلاق ؛ ولكن التزامه فيها من أسباب ضعف التبسط إذا أريد القصص الطويل ، أو الوصف الدقيق بالتحليل والتفصيل ، فلهذا عمدت بما قدمته من المثال إلى أن أصور للأذهان أين موضع العجز عندنا عن مجاراة الشعر القصصي والوصفي والتحليلي عند الأمم التي لم تلتزم وحدة القافية .

وقد انتفع بمحاولاتي ومحاولات أخر من شعراء عهدي ، نفر غير قليل من شعراء هذا الجيل ، وتمسك آخرون بما ورثناه عن شعرائنا الأقدمين ؛ وما زلت أومن بصدق نظرتي في أن التزام القافية الواحدة هو الذي يقعد بالشعر العربي عن مجاراة نظيره في آداب الأمم الأخرى التي لا تلتزم قافية واحدة كما يقعد بالشاعر عن التحليق فيما يريد من آفاق بعيدة المدى … ولن يعيب القدماء ما آثروا للشعر من النهج ، ولن ينتقص من جمال ما أتوا به من الروائع ، ولكن ما لاريب فيه هو أن طبيعة الحياة قد تغيرت عما كانت عليه من قبل ، إذ تعددت مناحيها ، وتشعبت مراميها ، وتباعدت أطرافها . وما كان لنا في ظروف حياتنا وما تزودنا به حضارة العلم الحديث من وسائل شتى للعيش ، وضروب مختلفة